وبداهة سوف يقوم هذا الشراع، هذا الحجاب الظلماني، بسد الدرب أمام «ضوء النجم»، وبأن يحول كذلك دون تسلل الشروق إلى غرفة السجين الذي يجهل مكانه مثلما نجهله نحن. وتبلغ الصورة العامة إلى ذروتها الجليلة السامقة حين ترسم الليل من حيث هو عديم الصدوع، لا يخترقه أي اختراق، فيحول الآن، بفعل هذه الكثافة والصلادة التي تؤسسه، دون نفاذ أي صوت إلى خارج تخومه الفولاذية، مما يعني أن حالة الحصار والتغلق مغلقة الهوية، حتى لكأنها منسوجة من الحجر الأصم. وتأتي عبارة: «الصدى يموت»، هذه الجزئية الشديدة التوفيق في هذا الموقع، لتنشر ايحاء بالاختناق داخل حصارين فولاذيين، حصار السجن وحصار الليل، وهما اللذان لا يقبلان أي إفضاء إلى الخارج.

تمثل هذه الفقرة الاولى، إذن، صورة لا مباشرة لحسّ الاحتجاز أو الاحتباس الخانق وفقاً لشكل فني غير مباشر، من شأنه أن يزيح عن الشعور صفته الشخصية، أو الفردية، وأن ينقله إلى مستوى كلي، أو انساني شامل، بحيث يملك كل امرىء أن يتحسسه ويعيشه. ولعل من الواضح أن الموقف برمته قد أسهمت في سبكه وإنصاعه مجموعة متواصلة من الشذرات التصويرية التي توالفت وترابطت بحيوية لتغني جملة الوضع بالمضمون النفساني الثري: «من الفجاج يطفح الظلام»، فكأنما يأتي من كل حدب وصوب، ولكنه يأتي على شكل طفح، أو اندفاعة جلدية، على شكل بثور ودمامل تندفع من كل مكان. ومما يزيد في وضوح هذه اللفظة الموفقة، أعني لفظة «الطفح»، أننا جميعاً نعرف هذا الشيء الفاسد الحامل لوجدان العفونة والتلف، أو أقله أنها حادثة تجسيمية استخدمت بحذق لتعبر عن صورة تجريدية، أو عن حادثة ليست تجسيدية بأي حال. هذا فضلاً عن الحركية التي تحملها لفظة «يطفح» وما تثيره في الخيال من خصوبة الفوران.

ثم إن في ميسورنا أن نتصور كيف يملك جدار الليل السميك الصلد أن يصد أنوار الكواكب، وذلك اشارة إلى الانطماس المطلق والحصار الذي لا فكاك له. فالخيال لا تعوزه القدرة على أن يتحسس خلفية الشكل من حيث هو جسم مقفل على ذاته من جهاته كافة. وفي وسع الخيال أن يستمد هذه الصورة للجسم المنغلق على نفسه من صورة الانقطاع الماثلة – كما لو كانت جسداً مرئياً – في الموقف برمته.

وربما كان العامل الأساسي في انجاح الشعور، هنا، في هذا العماء المفرط الجائر، هو التوازن الدقيق بين الذرات الشعورية، أو بين الجزئيات التصويرية العاملة على انهاضه. فما من شذرة في النص تشذ عن المسار القويم باتجاه إحداث الهزة الشعورية، هزة القلق الرصين الناجم عن غياب الأنوار، الشيء الذي يجعل من الموقف حصاراً للعقل، للرؤيا، للبصر، للعين، قبل كل شيء. ولهذا كان الشعور هنا خلواً بالكلية من التميع والتضخم، من التنفج والمجانية. كما انه بعيد كل البعد عن الزعمية. فإن كان من المستحيل أن نتصور – على الحقيقة لا على المجاز – «ليلاً بلا شقوق»، فنظن أن هذا أمر من قبيل الزعم، فإن هذا الظن ما يلبث أن يتوارى حين نعلم أن الغاية النهائية لهذه